امجد توفيق

لحن جديد لأغنية قديمة

كان الرجل العجوز جالسا على رابية صغيرة ، تشرف على بساتين الفواكه ، واشجار الحور العملاقة ، والصنوبر الرشيق ، وهو يتأمل رحيل الشمس وخفيف الاوراق المتراقصة في الريح ، بقلب مفعم بالحزن والذكريات .. كانت الاشياء تبدو له حزينة وقد فقدت بريقها القديم عندما كان يحمل فأسه ويجوب بين الاشجار ليقطع الاغصان المرهلة التي تعوق السير ، ويقطف انضج الثمر ليقدمها الى ابنه وزوجه، عندما يعود مع المساء الى البيت .. كان ابنه يقف امام البيت لينتظره ويحمل حفيدته الصغيرة المتلئه بالثمار ويأخذها الى الداخل، فتستقبله امه بالضحكات وتحاول ان تأخذها من يديه فيهرب الى ابيه ويحتمي به ، فيجلسه الاب في احضانه ، ويفرغ له محتويات الحقيبة ..

حين رحلت الشمس غابت اشجار الفواكه ولم يبق من البساتين غير اشجار الحور والصنوبر العالية .. كان الظلام ينتشر كرائحة الاوراق المتفسخة بعد سقوط المطر .. نهض العجوز ببطء ليتجه الى البيت ، فدار حول الرابية خشية الانزلاق ، واخذ يهبط .. شعر العجوز بان امجادا صغيرة تتدحرج خلفه وتمر من بين قدميه . نظر الى الوراء .. كان حفيده الصغير يناديه ، وهو في اعلى الرابية .. توقف الرجل بانتظار الصغير ، وطلب منه ان ينزل بهدوء .. هتف الطفل :

ـ لقد عاد ابي من البستان .. وهو ينتظرك لتناول العشاء ..

امسك العجوز بذراع الطفل ، واخذ يسير ثانية باتجاه البيت .. فقال له الطفل :

ـ يا جدي .. الا تخشى الظلام ؟

كان حزينا فقال له :

ـ هيا اركض الى البيت وقل لهم بانني في الطريق ..

كان العجوز يكره البقاء في البيت ، ويشعر بانه قد تحول الى شجرة يابسة يستعملونها في المواقد .. فزوجة ابنه لا تكف عن الثرثرة ، وتتهمه بافساد الطفل وتدليله .. وذلك لم يكن شيئا هاما بجانب الطبخ داخل البيت ، فقد اخبرها مرارا بانه لا يستطيع تحمل الدخان ، وطلب منها ان تطبخ في الساحة الصغيرة خارج البيت، لكنها رفضت ذلك وتعللت بعدم وجود موقد في الساحة .. كان يشعر بانها تكرهه لذا كان حذرا منها .. لكن الدخان يغيظه .. فقرر ان يخرجها .. في اليوم التالي استيقظ العجوز فجرا وجلب مجموعة من الصخور وكميات من التراب وباشر بعمل موقد كبير .. اعتنى به كثيرا كاعتنائه باشجار بستانه . وبعد الانتهاء منه ذهب الى قبر زوجته ، ولاول مرة منذ سنوات طويلة انهمرت دموعه وشعر بطعمها المالح في فمه .. وحين رجع الى البيت وجد الموقد مهدما ، فاجتاحه غضب شديد .. قالت له زوجة ابنه :

ـ ان الطفل هدمه .. الم اقل لك لقد افسدته ..

استطاع العجوز كبح غضبه ، ولم يتكلم ، اذ عرف بانها قد هدمته . ومن يومها كره البيت ، واخذ يخرج الى الحقول ويجلس على الرابية بانتظار عودة الفلاحين الى البيوت ..

في البيت كان العشاء جاهزا فجلس الرجل بهدوء .. ثم طلب من الطفل ان يأتيه بقليل من الماء .. نهضت زوجة ابنه وجلبت الماء ، فوضعه العجوز بجانب العشاء ، وبقي صامتا ..

قال له الابن :

ـ لماذا لا تشرب ؟

رفع العجوز الاناء وشرب ثم اعاده وهو يقول :

ـ كنت تعبا ..

ـ لماذا تخرج كثيرا يا ابي ؟. ان ذلك يؤثر عليك ، فلم تعد شابا ..

غمغم العجوز بحزن :

ـ نعم .. ذلك صحيح ..

ـ حسنا ، ارجوك يا ابي تناول عشاءك ، واذهب الى الفراش ..

قالت الزوجة :

ـ انه عنيد جدا ..

قال الابن بغضب :

ـ اخرسي ..

نهض العجوز الى فراشه ، فلحق به الصغير وهو يتشبث بذراعه، فاحتضنه الجد واستلقى على فراشه ، وبدا يتحسس الخطوط التي

رسمها الدمع على وجنتيه ..

استمر الابن بتناول عشائه وهو ينظر الى زوجته بعتاب .. فقالت:

ـ اسمع .. انه يتدخل في ابسط الامور .. لا ادري ما الذي اصابه ؟ صمت الزوج ، ثم شرب قليلا من الماء ومسح فمه ، ونهض ليغير وضع الفانوس المعلق بجانب الباب .. بحث عن مكان مناسب، ولكنه لم يجد ، فجلس ووضع الفانوس على يمينه وقال لزوجته :

ـ انه ابي .. ولا اريد ان اصبح مسخرة بين الرجال .. قرأت الزوجة تعابير الغضب المرتسمة على وجه زوجها ، فابتسمت وقالت ببراءة :

ـ هل جلبت لي اللوز الذي حدثتني عنه ؟

اجاب الزوج بصوت خفت غضبه :

ـ لم اجد الا قليلا .. انه في الحقيبة ..

نهضت الزوجة ، وجلبت الحقيبة الصغيرة ، واخرجت اللوز منها وجمعته في ثوبها ، ثم ذهبت الى غرفتها .. حمل الزوج الفانوس وتبعها ، بعدها كان الضوء يخفت تدريجيا مع اصواتهما .. حين تأكد الرجل العجوز من نوم الطفل ، وتلاشي الاصوات في البيت ، خرج بهدوء ، وحمل فأسه من الخارج واتجه نحو البساتين .. سار بين الاشجار ، واقدامه تسحق الاوراق المتساقطة التي تبدو طرية تحت اقدامه .. تسلق الرابية بسرعة ، وهناك وقف فترة قصيرة نظر خلالها الى البيت المحاط بالاشجار العملاقة وبعدها انحدر نحو البساتين الممتدة ، وقد رفع فأسه نحو الاعلى وامام رأسه كي لا يصطدم باغصان الاشجار التي تصادفه .. وكلما وجد غصنا متهدلا كان يضربه بالفأس ويزيحه عن الطريق كعادته عندما كان شابا .. انتابت العجوز احاسيس عذبة جعلته يقفز بين الاشجار ويطلق اصواتا وحشية وهو يضحك ويلوح بالفأس .. شعر بانه قد عاد الى ايام مجده وما هذه التجاعيد التي يحملها وجهه الا كذبة كبيرة الصقها به الاخرون فصدقها دون تفكير .. اشرف العجوز على الترعة الكبيرة التي تغذي البساتين المجاورة فوضع الفأس على كتفه وحاول ان يقفز من فوقها ، ولكنه لم يستطع اجتيازها ، فسقط في الترعة ، وغاصت اقدامه في الطين .. حاول ان يخرج .. فشلت محاولاته الواحدة تلو الاخرى .. اراد ان يصرخ ، ولكنه كتم صوته اذ لاحت له زوجة ابنه وهي تبتسم بمكر .. كانت الفأس قريبة منه ، فاخذ يزحف نحوها باستماتة ، وعندما لامست اصابعه حديد الفأس البارد شعر ان انفاسه تأبى الخروج ، فانكفأ على وجهه وهو يئن بعذاب مقهور ..

سمع العجوز صوت اغنية بعيدة ، كان يرددها عندما كان شابا ، يجتمع حوله الرجال والنساء ويطلبون منه ان يستمعوا اليها .. كان يحدق نحو الفتيات ، ويطلق صوته ، عذبا ، رخيما فيرقص الرجال بجنون وهم يدورون حوله وعيونهم تتوقد كالجمر ، وترميه الفتيات باللوز وحبة الخضراء ، فيهرب ويتسلق جذع شجرة قريبة .. حينها كانت الارض تشهق والاشجار تتمايل ، والاوراق من فرحها تهجر الغصون لتحلق فوق رأسه وتلتصق بصدور الفتيات ..

لم يلبث انين العجوز ان اصبح متوافقا مع لحن الاغنية التي يسمعها ، فشعر بهدوء وبمدرة على التفكير .. رفع رأسه وجذب الفأس ، وامسك بها ، ثم رفعها فوق رأسه وضرب الارض بكل ما في نفسه من حزن .. اختفى حديد الفأس في الارض ، فاخذ العجوز يسحب نفسه ، وهو ممسك بذراع الفأس علّه يستطيع الخروج من الترعة ، ولكن سرعان ما اصبح الفأس بيد العجوز اذ لم يتحمل ثقله .. فرفعه العجوز ثانية ليغرسه في الارض ، رفعه بقوة رجل يائس .. لم يستطع السيطرة عليه ، فهوى على رأسه .

سال الدم على جبين العجوز وسقط في الترعة .. وكانت اصوات اغنيته القديمة تتلاشى تدريجيا ، كما تتلاشى دماؤه في مياه الترعة ..

بغداد

دراســـــات ادبيــة

من منشورات دار الآداب

مذكرات طه حسين	د . طه حسين	التكسب بالشعـــر	د . جلال الخياط
من ادبنا المعـاصر	« «	شخصيات من ادب المقاومة	سامي خشبة
تجديد رسالة الغفـران	خليل الهنداوي	سيمون دو بفوار اومشروع الحياة	فرانسيس جانسون
الادب المسؤول	رئيف خـوري	كامو والتمرد	لدولوبيه
بين آدم وحـواء	د . زكي مبـارك	بابا همنفـواي	ا . ا . هوتشنر